ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

تنوعُ ألوانِ البشرِ تكيفٌ بيئيٌّ أم انعكاسٌ للأصلِ الطِّينيّ

د. محمد خالد الرهاوي

أستاذ مشارك، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر

Human color diversity: an environmental adaptation or a reflection of clay origin?

Dr. Mohammed Khaled Al-Rahawi

Associate Professor, Department of Arabic Language and Literature, College of Arts and Sciences, Qatar University

rahawi@qu.edu.qa

تاريخ استلام البحث: 1 / 7 / 2025 **تاريخ قبول البحث: 13 / 9 / 2025**

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

ملخص:

يتناول البحث سبب تعدد ألوان البشر، مقدّما له بإشكالية التفسير العلمي الذي ينسبه إلى التكيف البيئي والأشعة فوق البنفسجية بوصفه منطلقا ماديا ينفي دور الخالق عز وجلّ، ثم هدف البحث وفرضيته ومقدمة عامة تضمنت جملة من الأسئلة التي دفعت على كتابة البحث. ويقدم البحث الرؤية الإسلامية بديلا متكاملا عنه، فيبين أن ألوان البشر وطبائعهم ما هي إلا تجلٍّ وانعكاس لألوان وأنواع التراب الذي خلق الله منه آدم عليه السلام، وأن هذا التنوع في الألوان منحٌ ربانية وإعدادٌ إلهيٌّ مسبق للإنسان ليستطيع التكيف مع البيئة التي قدر الله له أن يعيش فيها وظروفها المناخية وأن يؤدي مهمة عمارة الأرض واستخلافها التي كلفه بها، وقد جاء في مقدمة وثلاثة مباحث، عرض في المبحث الأول أطوار الخلق، وعرض في المبحث الثاني التفسير العلمي لتعدد ألوان البشر ونشأتها، وناقش في المبحث الثالث تجلي ألوان التراب وأنواعه في ألوان البشر وطبائعهم من المنظور الإسلامي، ثم ختم ببيان نتائج البحث وخاتمته.

الكلمات المفتاحية: ألوان، البشر، التراب، التكيف، التجلي، الإسلام

Abstract:

This research addresses the reason for the diversity of human skin colors, introducing it with the problematic scientific explanation that attributes it to environmental adaptation and ultraviolet rays as a materialistic basis that negates the role of the Almighty Creator. It then presents the research objective, hypothesis, and a general introduction that includes a set of questions that prompted the writing of the research. The research presents the Islamic perspective as a comprehensive alternative, demonstrating that human colors and natures are merely a manifestation and reflection of the colors and types of soil from which God created Adam, peace be upon him. It also demonstrates that this diversity of colors is a divine gift and prior preparation for humans to adapt to the environment and climatic conditions in which God has destined them to live, and to perform the mission of populating and succeeding the Earth with which He has charged them. The research is divided into an introduction and three chapters. The first chapter presents the stages of creation, while the second chapter presents the scientific explanation for the diversity of human colors and their origin. The third chapter discusses the manifestation of the colors and types of soil in human colors and natures from an Islamic perspective. It concludes with a statement of the research findings and conclusion.

Keywords: Colors, Humans, Soil, Adaptation, Manifestation, Islam

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

مقدمة:

كثيرا ما أثار التنوع المذهل في ألوان بشرتنا –والذي يمتد عبر طيف لوني واسع من أعمق درجات الأسود إلى أظهر درجات الأبيض– تساؤلات عميقة حول أصل هذا الاختلاف وغايته وهويتنا، وكثيرا ما شغل ذهني الربطُ بين ألوان البشر المتعددة وألوان التراب المتعددة، وأثار ذلك في نفسي جملة من الأسئلة من قبيل: ما دام الله قد خلقنا من تراب فهل يمكن أن تكون ألوان بشرتنا المتعددة انعكاسا لألوان التراب المتعددة أم لا علاقة لهذا بهذاك؟ وهل يمكن أن تتجلى ألوان الطين الذي خلقنا الله منه في ألواننا؟ هل ألواننا نحن البشر تجلٍّ لألوان الطين الذي خلقنا منه أم هو نتيجة طبيعية لدرجات الحرارة في الأماكن التي يعيش فيها البشر؟ وهل هذه الألوان تكيُّف طبيعي مع البيئة أم هي رزق ورحمة من الله لنا ليستطيع كل واحد منا أن يعيش في المناطق التي قدر الله له العيش فيها وأن يتحمل درجات حرارتها وطبيعتها؟ وما الغاية من هذا التعدد والاختلاف في الألوان؟ أهو لمجرد التنوع وتشكيل فسيفساء غنية بالألوان أم أنَّ في كل لونٍ منحاً ربانية تمكنها من القدرة على الحياة وعمارة الأرض في المنطقة التي تعيش فيها؟ وإذا كانت هذه الألوان مصدر غنى وجمال كما هي في أي لوحة فلماذا يُساء توظيفها للتفاضل والتراتبية وربما للاضطهاد؟ أليس هذا التنوع في الألوان شهادة مرئية على ثراء الجنس البشري وتكامله؟ وهل يتناقض التفسير الإسلامي لتعدد ألوان البشر مع التفسير العلمي له أم يتكاملان؟

سأعرض أطوار خلق الإنسان حسب القرآن ثم التفسير العلمي على عجالة، لأن هذا ليس هدفا للبحث، ثم الرؤية الإسلامية بتوسُّعٍ، فهي الهدف، وفيه الإجابة عن التساؤلات الكثيرة التي مرت آنفا، لعلي أقدم ما يفيد؛ ذلك أن الإسلام يقدّم لنا الحقائق النظرية المقطوع بصحتها، والعلم يقدّم لنا البراهين المادية المثبتة لها والمبرهنة على صحتها، وإذا ما تضافرت هاتان الرؤيتان، قدَّمتا لنا فهماً شمولياً يثري تصورنا للمسألة، ويمكن أن يؤثر في الخطاب العالمي المعاصر حول العرق والهوية والعدالة الاجتماعية.

إشكالية البحث:

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

تتمثل إشكالية البحث في نسبة العلم تعدُّدَ ألوان البشر إلى الطبيعة والبيئة وتفسيره لاختلاف الألوان باختلاف درجات الأشعة التي يتعرضون إليها، وهذا منطق إلحادي ينسب التأثير للطبيعة لا إلى الخالق سبحانه وتعالى.

هدف البحث:

يهدف البحث إلى إثبات أن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة يقدمان رؤية متماسكة متكاملة لتجلي ألوان تراب الأرض وأنواعه في التنوع البشري ألواناً وطبائعَ، وتأسيسه لمبادئ الوحدة الإنسانية والمساواة ومعيار التفاضل.

فرضية البحث:

يفترض البحث أن ألوان البشر المتعددة هي انعكاس لألوان التراب الذي خلقهم الله منه، وهي منحة ربانية أودعت في أصل الخلق بوصفها جزءا من الإعداد المسبق من الخالق سبحانه للبشر ليتمكنوا من الانتشار في الأرض وخلافتها وعمارتها في مختلف مناطقها الجغرافية وظروفها المناخية، ولم تنشأ هذه الألوان نتيجة لظروف طبيعية وبيئية كما يقول التفسير العلمي، وشتان ما بين اعتبارها منحة ربانية للتكيف وبين اعتبارها نتيجة لتكيُّفٍ بيئي على مدار الزمن.

المبحث الأول: أطوار الأصل المادي للإنسان

ربما لا تتضح الصورة كاملة حتى تجمع الآيات الكريمة المتعددة في القرآن الكريم التي تحدثت عن عملية خلق الله تعالى للإنسان الأول آدم عليه السلام أبي البشرية جمعاء، وذلك من أجل تقديم وصف موجز دقيق ومتدرج لأطوارها، من بدايتها من عنصر بسيط من الأرض إلى انتهائها بكائن بشري متكامل ومستعد لنفخ الروح فيه:

المرحلة الأولى: التراب، ويمكن أن نعدها مرحلة اختيار المواد الأولية وانتقائها، وفي القرآن الكريم آيات متعددة على هذه الحقيقة تصرح بأن التراب هو المادة الأولية الأساسية التي بدأ منها خلق الإنسان، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم 20]، والخطاب موجهٌ

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

للبشرية جمعاء؛ ولذلك جاء بميم الجمع (خلقكم)، وهو صريح أيضا في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾ [الحج 5]، ويقول في سياق المقارنة بخلق عيسى عليه السلام: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ ۖ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران 59]، وقوله تعالى في قصة صاحب الجنتين المتكبر المغرور: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا﴾ [الكهف ٣٧]، تذكيرا بالأصل المشترك والمتواضع الذي هو التراب، وإبرازا لعظمة الخالق وقدرته الإلهية على خلق الإنسان من هذا التراب، وعلى تحويل هذه المادة الطبيعية الأولية البسيطة إلى إنسان حي عاقل مفكر يكون خليفة لله في الأرض التي خلقه من ترابها.

المرحلة الثانية: الطين، ويمكن أن نعدها مرحلة إعداد المواد الأولية وتجهيزها للبدء بعملية الخلق، فبإضافة الماء إلى التراب يتحول طين، ويكتسب خاصية التماسك والقابلية للتشكيل والتصوير ﴿وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ﴾ [السجدة 7]، ويصرح القرآن بهذه الصفة، فيقول: ﴿إِنَّا خَلَقْنَاهُم مِّن طِينٍ لَّازِبٍ﴾ [الصافات 11]، وكلمة (لازب) لغويا تعني اللاصق أو اللزج المتماسك الذي يشد بعضه بعضا *(ابن منظور، 1414هـ، 15/68-69، لزب)*؛ أي أن الطين قد وصل إلى حالة من التماسك واللزوجة تجعله مثالياً لعملية الخلق. كذلك ظهر مصطلح الطين في سياق الحوار الذي دار بين الله تعالى وإبليس حين أمره بالسجود لآدم فاعترض متكبرا ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [ص ٧٦]، وأجاب عن سؤال الله تعالى عن امتناعه لأمره بالسجود لآدم ﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ۖ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف ١٢].

المرحلة الثالثة: صلصال من حمأ مسنون، ويمكن أن نعدها مرحلة تحويل المادة إلى شكل وصورة، فبعد مرحلة الطين اللازب، يُترك هذا الطين ليمر بمرحلة تشبه التخمير، فيصبح حمأ مسنونا، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر ٢٦]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر ٢٨]، ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر ٣٣]. والصلصال: الطين اليابس الذي يصدر صوتا إذا نُقر عليه. والمسنون لغة المصبوب أو الذي سنّ وجهه؛ أي أحدثه، وفي الحديث: من سنّ سنة حسنة؛ أي أحدثها. أو بمعنى الأملس؛ أي أنه صار أملس بعد تشكيله على هيئته. والحمأ لغة هو الطين الأسود *(ابن منظور، 1414هـ،10/21، حمأ)*.

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

المرحلة الرابعة: صلصال كالفخار، وهي المرحلة المادية الأخيرة قبل نفخ الروح ﴿خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِن صَلۡصَٰلٖ كَٱلۡفَخَّارِ﴾ [الرحمن ١٤]، لكن هذا التشبيه للصلصال بالفخار –وقد حُذف منه وجه الشبه– يفيد جملة معانٍ، منها: التأكيد على شدة جفافه وصلابته، وأنه أصبح جسما أجوفَ يصدر صوتا رناناً عند القرع، وأنه في أتم الاستعداد لاستقبال النفخة الإلهية التي ستحييه. والتشبيه عادة يعقد للمقارنة بين الصفات لا الذوات، بمعنى آخر أوضح فإن المقصود من التشبيه هو أن الصلصال صار كالفخار في صفاته، ولا يراد أنه صار فخارا أو أنه أُحرق بالنار *(الطبري،2001، 191/22)*. وقد أجمل القرطبي هذه المراحل بقوله: "وذلك أنه أخذ من تراب الأرض، فعجنه فصار طينا، ثم انتقل فصار كالحمأ المسنون، ثم انتقل فصار صلصالا كالفخار". *(القرطبي، 1964، 161/17)*.

المرحلة الخامسة: التسوية ونفخ الروح، وهي المرحلة النهائية، ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [الحجر ٢٩]، ﴿فَإِذَا سَوَّيۡتُهُۥ وَنَفَخۡتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُواْ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾ [ص ٧٢].

وهذا التدرج سرد لأطوار عملية الخلق واستعراض لقدرة الخالق وعنايته، فالله القادر على الخلق بكلمة واحدة ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس ٨٢]، اختار أن يخلق أبا البشر آدم عليه السلام عبر هذه العملية المتدرجة التي تدل على تكريمٍ من الله تعالى له ﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء ٧٠]، وأنه مخلوق مخصوص حظي بعناية إلهية مباشرة، وبلغ ذروة هذا التكريم بأمره تعالى الملائكة والجن أن يقعوا له ساجدين، وهو شرف لم يُعطَ لغيره من المخلوقات الأخرى. وأما لونه فقد اختلف المفسرون فيه؛ قال ابن عباس: "إنه مشتق من الأُدْمة؛ وهي السمرة. واختلفوا في الأدمة، فزعم الضحاك أنها السمرة، وزعم النضر أنها البياض، وأن آدم عليه السلام كان أبيض" *(القرطبي، 1964، 279/1)* قال ابن منظور: "والأُدْمة: السُّمرةُ. والآدم من الناس: الأسمر. ابن سيده: الأُدمة في الإبل لون مُشرَبٌ سوادا أو بياضا. وقيل: هو البياض الواضح. وقيل: في الظباء لون مشربٌ بياضا، وفي الإنسان السُّمرة. قال أبو حنيفة: الأُدمة: البياضُ.... ابن سيده: "الأُدْمُ من الضباء: ضباء بيضٌ يعلوها جُدَدٌ فيها غُبْرة .... الجوهري: "والأُدْمة في الإبل: البياضُ الشديد.... ويقال: هو الأبيض الأسود المقلتين" *(ابن منظور، 1414هـ، أدم)*. وذهب ابن عاشور إلى أن الاسم مرتجلٌ متفق عليه بين أهل الأديان، وليس مشتقا، يقول: "ولا يجوز أن يكون اسمه مشتقا من الأُدمة، وهي اللون المخصوص؛ لأن تسمية ذلك اللون بالأدمة خاص بكلام العرب،

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

فلعلّ العرب وضعوا اسم ذلك اللون أخذا من وصف لون آدم أبي البشر". *(ابن عاشور، 1984، 3/229)* وهو رأي وجيه، لكنه لا ينفي اللون بل يجعله أصلا له، ولعل الراجح أن يكون لون آدم عليه السلام أسمر، بناء على ما ورد في القرآن الكريم من أنه خلق من صلصال كالحمأ المسنون؛ وهو الطين الأسود كما أسلفت، ولعل حواء كانت ذات بشرة فاتحة لكونها خُلقت من ضلع آدم *(الصنعاني، 1433هـ، 6/84)* ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء ١]. ومن مورثات اللونين عند آدم وحواء جاء أبناؤهم بألوان مختلفة ناتجة من تزاوج اللونين الأسود والأبيض اللذين هما أصل الألوان. *(الأنباري، 2003، 1/122)*

المبحث الثاني: تعدد ألوان البشر من المنظور العلمي

ترجع العلوم الطبية الحديثة السبب المباشر لاختلاف ألوان البشر إلى وجود صبغة الميلانين، فكلما كثرت اسودّ لون الجلد، وكلما قلّت ابيضّ لونه، والميلانين تنتجه خلايا تحت الجلد تعرف بالخلايا الصبغية، وتحدد كميتَه ونوعَه الجيناتُ الوراثية، وهو نتاج بصمة وراثية معقدة وليس عشوائيا، فلون الجلد صفة متعددة الجينات تصل إلى أكثر من (150) جينا مختلفا، ومنه نوعان رئيسان:

1. الإيوميلانيين (**Eumelanin**): وهو مسؤول عن الألوان البنية والداكنة، ويكون أكثر شيوعا عند أصحاب البشرة السمراء.
2. الفيوميلانين (**Pheomelanin**): وهو مسؤول عن ألوان الصفراء والحمراء، ويكون أكثر شيوعا عند أصحاب البشرة الفاتحة. *(https://www.carehospitals.com/ar/blog-detail/how-to-reduce-melanin-in-skin/)*

وتفسر هذه العلوم تعدد ألوان البشر بأنه نتيجة عملية طويلة من الانتخاب الطبيعي والتكيف مع مستويات مختلفة من الأشعة فوق البنفسجية (UV) التي تصدر من الشمس، والتي شكلت بقوتها ضغطا انتخابيا لصالح البشرة الداكنة في المناطق القريبة من خط الاستواء. بخلاف المناطق البعيدة عن خط الاستواء والتي تكون فيها الشمس أضعف وأقل كثافة، فقد شكل نقص الأشعة فوق البنفسجية فيها ضغطا انتخابيا

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

معاكسا لصالح البشرة الفاتحة. ومع هجرة المجموعات البشرية حول العالم على مدار (1.5) مليون سنة تغيرت ألوان بشرتهم وتكيفت مع البيئات الجديدة أو أن البشر هم من طوروا البشرة الداكنة. (https://al-aleem.science/why-peolple-have-differnt-skin-color-181205) وذهبت بعض الدراسات إلى أن اللون الداكن هو الأصل، وأن اللون الفاتح حدث بعد أن انتقل بعض الناس من المناطق الحارة إلى الباردة (https://ar.rt.com/jdsj). يقول كريم خطاب: "تتولى الشمس مهمة توزيع ألواننا، فالتعرض لأشعة الشمس أحد العوامل الرئيسة لإنتاج مادة الميلانين، فتؤدي إلى صبغ الجلد كلما زاد التعرض للشمس، فيتدرج لون الجلد باختلاف التعرض للشمس، كما تلعب البيئة دورا في التأثير في لون الجلد، فتؤثر العوامل المناخية والبيئية في لون البشرة، فمثلا من يعيشون بالقرب من البحار والمحيطات أو البيئة الثلجية لون بشرتهم هو الأبيض، وكلما زاد تعرضهم للشمس تدرج لونهم إلى الدرجات الداكنة من البشرة، ومن يعيشون بالقرب من البيئة الاستوائية يحملون اللون الأسود بسبب الحرارة الشديدة والتعرض للشمس الحارق" (https://2u.pw/MhL20). وكلامه صريح في نسبة التأثير للشمس خاصة والمناخ والبيئة عامة.

وكما هو ملاحظ، ليس في التفسير العلمي ما يثبت بل ليس فيه ما يبحث عن علاقة سببية مباشرة بين ألوان البشر وألوان التربة، ويُرجع اختلافَ ألوان البشر إلى التكيف مع أشعة الشمس فوق البنفسجية على مدار آلاف السنين. ويمكن أن تسجل بعض الملاحظ على هذا التفسير، منها:

1. أن التفسير العلمي له جانبان:

الأول: وظيفي يفسر كيف تتكيف ألوان البشر مع طبيعة المناطق التي يعيشون فيها وأشعة الشمس فوق البنفسجية بدرجاتها المختلفة في كل بيئة، دون أن يربط بين ألوان البشر وألوان التراب الذي خلقهم الله منه. وهذا التفسير يؤكد ما يقدمه التفسير الإسلامي في أن ألوان البشر إعدادات ربانية مسبقة لهم للتكيف مع البيئة التي قدر لهم أن يعيشوا فيها وكلفوا بعمارتها كما سيأتي.

والثاني: افتراضي يربط نشأة ألوان البشر بفعل الطبيعة والبيئة على مدار آلاف السنين، وهو منطق إلحادي لا يستقيم بحال من الأحوال كما سنبين. ولا تختلف نسبة السبب والفضل في نشأة ألوان البشر إلى فعل الطبيعة عن نسبة الملاحدة وجود الكون إلى المصادفة والطبيعة، مع أن كل شيء

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

في هذا الكون يشير بوضوح إلى عظمة الله وكمال قدرته ووحدانيته، وكل شيء بعلمه وقدره وحسابه الدقيق ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر ٤٩]، ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان ٢].

2. أن التفسير العلمي لجسم الإنسان أثبت أنه مركب من (21) عنصرا من أصل (118) عنصرا على الأرض، وأهمها: الأكسجين والكربون والهيدروجين والنتروجين والمعادن الأساسية والتكميلية مثل الكالسيوم والبوتاسيوم والمغنسيوم والحديد والصوديوم والزنك والنحاس والفلور بل حتى الذهب (https://2u.pw/oV08g / https://2u.pw/dxAta) وربما فيه معادن أخرى لم تكتشف حتى الآن، وهذا تفسير علمي لقوله تعالى: ﴿إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ﴾ [النجم ٣٢]، والتعبير في الآية الكريمة غاية في الدقة إذ جاء بـ(من الأرض) وليس (في الأرض).
3. أن التفسير العلمي لنشأة ألوان البشر يفترض افتراضا أنه نتيجة عملية انتخاب طبيعي على مدار (1.5) مليون سنة وليس حقيقة مثبتة بالأدلة والبراهين، فهل لدى العلم أدلة قطعية على ألوان البشر الأوائل منذ عهد آدم وأولاده مثلا؟ ثم إن هذا الافتراض بأن نشأة ألوان البشر نتيجة للتكيف التدريجي عبر مليون ونصف سنة يناقض تقديرات المؤرخين على نحوٍ مباشر، فالمؤرخون يقدرون عمر البشر على هذه الأرض منذ نزول آدم عليه السلام عليها حتى يومنا هذا بما يقرب من خمسة عشر ألف عام على أبعد تقدير *(القرطبي، 1964، 6/121-122)* وقدَّره سفر التكوين (4942) سنة قبل الميلاد. *ابن عاشور، 1984، 3/230)*
4. أن مئات الآلاف من السكان من ذوي البشرة البيضاء يعيشون في جنوب إفريقيا خاصة منذ أكثر من (230) سنة، وفي قارة إفريقيا وأمريكا اللاتينية عامة منذ قرون، ومع ذلك ما زالت بشرتهم بيضاء، ولم تتغير إلى سمراء لتتكيف مع البيئة. وكذلك يعيش في أوروبا الباردة آلاف البشر من ذوي البشرة السمراء منذ مئات السنين ولم يصبحوا بيضاً للتكيف مع البيئة والبرودة هناك.
5. أن الرابط بين ألوان البشرة وألوان التربة له سند قوي في القرآن الكريم وآيات كثيرة، وذلك يكفينا لأنه كلام الله تعالى الذي ﴿لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ تَنزِيلٞ مِّنۡ حَكِيمٍ حَمِيدٖ﴾ [فصلت ٤٢]، وهو أصدق الكلام وأثبته وأعلاه؛ ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثٗا﴾ [النساء ٨٧]، ﴿وَمَنۡ أَصۡدَقُ مِنَ ٱللَّهِ قِيلٗا﴾ [النساء ١٢٢]. وعدم قدرة البشر أو العلم على الربط بين ألواننا وألوان الأصل الذي

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

خلقنا الله منه لا يمكن أن يقوم دليلا على أنه غير دقيق، ولا مسوغاً لافتراضات ما أنزل الله بها من سلطان، ولا أن يزحزح يقيننا –ولو قليلا– بصوابية ما أخبر به القرآن الكريم.

6. وكذلك له سند صريح في الحديث الشريف الصحيح الذي سيأتي ذكره، ومصدر الحديث النبوي الشريف هو الوحي كما أخبر بذلك القرآن الكريم نفسه ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ﴾ [النجم ٣– ٤]. وما دام النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق عن الهوى ومصدره الوحي من الله تعالى فهل يمكن ألا يكون سبب ألواننا وطبائعنا عائدا إلى ألوان التراب وأنواعه التي خلقنا الله منها؟ بمعنى آخر هل يمكن أن يناقض فعل الله (خلق الإنسان) مع وحيه (ما أخبر به النبي)؟ أليس هذا من المحال؟

وسيأتي مزيد من الأدلة في المبحث الثاني. وقد يبدو للوهلة الأولى صوابية التفسير العلمي وتعارضه مع التفسير الإسلامي؛ لأن العلم كما يعتقد كثيرون يقوم على التجربة، والتجربة لا تخطئ، لكن أليس هذا التعارض ناتجا عن فهم بشري قاصر أو ناقص للنص الإسلامي (قرآن أو حديث) أو عن فهم قاصر أو خاطئ للعلم؟ فكم من أمرٍ قرَّر العلم ثبوته وصوابيته ثم تبين له خطأ ذلك بعد سنوات؟ وفي المقابل هل ثمة أمرٌ قرره القرآن أو الحديث وتبين لاحقا خطؤه؟

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

المبحث الثالث: تجليات ألوان التراب وأنواعه في ألوان البشر وطبائعهم من المنظور الإسلامي

إذا كانت العلوم الحديثة تفصل بين السمات الجسدية فتنسبها إلى الوراثة، وبين الطباع فتنسبها إلى علم النفس، وبين الأخلاق فتنسبها إلى الفلسفة أو الدين أو المجتمع فإن الرؤية الإسلامية تقدم نموذجا شموليا تتشابك فيه المظاهر الجسدية مع الطبائع النفسية والأخلاق في وحدة متكاملة أساسها تكامل الأصل الذي خلق منه الإنسان وأن التعدد في ألوان الأجساد وطبائع النفوس يعود إلى تعدد عناصر الأصل الواحد، فألوان التراب تتجلى في ألوان البشر، وأنواعه في طبائعه، وسندلل على ذلك من خلال الوقوف على بعض الآيات والأحاديث والأقوال الدالة على ذلك، مكتفيا بستة منها، هي:

الأول: قوله تعالى في ثلاث آيات من سورة الحجر بأن الله خلق الإنسان من حمأ مسنون ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر ٢٦]، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر ٢٨]، ﴿قَالَ لَمْ أَكُن لِّأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُۥ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر ٣٣]. والحمأ لغة هو الطين الأسود *(ابن منظور، 1414هـ، حمأ)*، ومن هذه الآيات الكريمة يتضح أن لون بشرة أبينا آدم عليه السلام كان مائلا إلى السواد أو السمرة الذي هو لون الطين الذي خلقه الله تعالى منه. وثمة آية كريمة هي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء ١]، تصرح بأن حواء قد خلقت من آدم، ومن ضلعه كما يصرح الحديث الشريف: "استوصوا بالنساء خيرا، فإن المرأة خُلقت من ضلع". *(البخاري، 1993، 1091/2 برقم 1461)*. وبما أن حواء خلقت من ضلعه *(الصنعاني، 1433هـ، 84/6)*. فهذا يعني أن لون المادة التي خلقت منها بيضاء اللون لأنها كلسية، فالعظام تتشكل من مادة كلسية بيضاء، والكلس تراب، وبناء على ذلك فقد كان لون بشرة أمنا حواء بيضاء، وربما كان السر في اختيار هذا اللون لينجذب آدم إليها، فالرجل يجذبه بياض المرأة وجمالها. وانطلاقا من هذين الأصلين: آدم الأسمر وحواء البيضاء، يمكن فهم تنوع ألوان بشرة أبنائهما وذريتهما من بعدهم؛ فمِن تزاوج مورثات اللونين الأسود والأبيض جاء أبناؤهم بألوان أخرى متعددة تعكس لون التراب الذي خلق منه أبوهم وأمهم، وكما أن هذين اللونين الأسود والأبيض يعدان أساس جميع الألوان الأخرى في عالم الماديات، فكذلك كان اجتماعهما في الأصل البشري الأول سببا في ظهور كل هذا التدرج في ألوان البشر، فقد جاء من نسلهما من حمل مورثات أبيه فكان أسمر، ومنهم من

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

حمل مورثات أمه فكان أبيض، ومنهم من جاء لونه بين ذلك من تزاوج مورثات اللونين، وتوالت الأجيال وتفرعت الأنساب وانتشرت في أرجاء المعمورة، وعاش كل ذي لون منحه الله إياه في البيئة التي تناسبه.

الثاني: قوله تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [هود ٦١]، والأبحاث العلمية اليوم تؤكد أن الإنسان مركب من (21) عنصرا من أصل (118) عنصرا على الأرض، وأهمها: الأكسجين والكربون والهيدروجين والنتروجين والمعادن الأساسية والتكميلية مثل الكالسيوم والبوتاسيوم والمغنسيوم والحديد والصوديوم والزنك والنحاس والفلور وحتى الذهب. (https://2u.pw/dxAta/https://2u.pw/oV08g) وهذا تفسير علمي لقوله تعالى: ﴿إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾ [النجم ٣٢]، والتعبير في الآية الكريمة غاية في الدقة إذ جاء بـ(من الأرض) وليس (في الأرض). والأرض تشمل التراب والغلاف الجوي المحيط بها. والنقطة المهمة هنا أن المادة التي يصنع منها شيء ما تبقى محتفظة بأصلها وإن تغيرت كثير من خصائصها، فالقطن الذي يصنع منه ثوب يبقى قطنا وإن تغيرت خصائص كثيرة فيه. وكذلك الإنسان تبقى فيه خصائص التراب الذي خلق منه، وإن تغير كثيرا عنه. ونظرا لتنوع الأصل في الألوان والصفات، تنوعت ألوان الفرع البشري وطبائعه، ولم يكن التنوع عشوائيا ولا عرضيا، وإنما حقيقة تكوينية مقصودة وتصميم إلهي بديع، وإذا كان الفنان –ولله المثل الأعلى– لا يوظف الألوان والمواد توظيفا عشوائيا مع أنها لوحة جامدة، فما ظنّك بالله أحسن الخالقين؟

الثالث: قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ﴾ [المؤمنون 12]؛ أي: "ولقد خلقنا آدم من طينٍ مأخوذٍ من جميع الأرض" *(نخبة من أساتذة التفسير، 2009، ص342)*. وكلمة (سلالة) في الآية الكريمة تشير إلى جملة أمور، منها:

- الأصل: قال ابن منظور: "أراد بالإنسان ولد آدم، جُعل الإنسان اسما للجنس. وقوله {من طين} أراد أن تلك السلالة تولَّدت من طين خُلق منه آدم في الأصل. وقال قتادة: استُلَّ آدمُ من طين فسمي سلالة... قالت هند بنت النعمان:

  وما هندُ إلا مهرةٌ عربيةٌ سليلةُ أفراسٍ تجلَّلها بغل" *(ابن منظور، 1414هـ، سلل)*

- الخلاصة أو الصفوة: فهي من الفعل (سلّ) الذي يتضمن استلالا واستخلاصا، جاء في اللسان:

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

"اللهمّ اسقنا من سليل الجنة"؛ أي صافي شرابها وقيل له سليل لأنه سُلَّ حتى خلص. *(ابن منظور، 1414هـ، سلل)*. وبناء على هذا فإن الإنسان لم يخلق من مادة خام وعامة، بل من مادة مستخلصة مستلة بقصدٍ وهدفٍ وشاملة للمكونات اللازمة للخلق وقابلة للحياة بتكاملها وتنوعها، وهذا يتوافق والمنطق العلمي للحياة بأنها تتطلب مزيجا محددا ومعقدا من العناصر الكيميائية لا عناصر عشوائية. *(القرطبي، 1964، 109/12)*

- الرفق واللين: قال ابن منظور: "السَّلُّ: انتزاع الشيء وإخراجه في رِفقٍ... والسَّلُّ: سلُّك الشعر من العجين ونحوه" *(ابن منظور، 1414هـ، سلل)* وفي حديث حسان رضي الله عنه: "لأَسُلَّنَّك مِنْهُمْ كَمَا تُسَلُّ الشَّعَرة مِنَ الْعَجِينِ". *(البخاري، 1993، 1299/3 برقم 3338) (النيسابوري، 1955، 1935/4 برقم 24900)*.
- الاصطفاء والانتقاء: جاء في اللسان " بسُلالةٍ مِنْ ماءِ ثَغْبٍ"؛ أي مَا اسْتُخْرج مِنْ مَاءِ الثَّغْب وسُلَّ مِنْهُ". *(ابن منظور، 1414هـ، سلل)*. وهذا يعني أن عملية خلق الإنسان من طين كانت عملية استخراج واصطفاء وانتقاء إلهي مقصود وليست عشوائية. وفي هذا إشارة خفية إلى تكريم بني آدم، فهو لم يخلق من أي تراب، بل من جوهر معين منتقى بعناية، وأي عناية؟ إنها العناية الإلهية. وإذا كان الفنان أو البنَّاء أو أي صاحب صنعة يراد أن ينجز شيئا في صنعته انتقى لها أحسن المواد وأجودها، فما ظنك بالله أحسن الخالقين؟
- التأني والتدرج: جاء في الحديث الشريف: "فانسللت من بين يديه"*(ابن منظور، 1414هـ، سلل)*؛ أي بتأنٍّ وتدرُّج. وفي ذلك إشارة إلى إتقان الخلق وإحسانه، وهو ما يؤكده قوله تعالى: ﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٖ﴾ [التين ٤]. وكذلك تؤكده أطوار الخلق.
- التنوع والتعدد: قال الفراء تفسيرا لهذه الآية: "السُّلالة: الذي سُلَّ من كل تُربة". *(ابن منظور، 1414هـ، سلل)*.

وبناء على هذا كانت ألوان بني الإنسان انعكاسا لألوان التراب الذي خلق منه، فمن غلب عليه التراب الأسود كان لون بشرته كذلك، ومن غلب عليه التراب الأحمر كان لون بشرته كذلك، ومن غلب عليه التراب الأبيض كان لون بشرته كذلك.

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

الرابع: الحديث الشريف "إنَّ الله تعالى خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، منهم الأحمر والأسود والأبيض والأصفر وبين ذلك، والسهلُ والحزن والخبيث والطيب وبين ذلك" *(ابن حبان، 2012، 57/4 برقم 6160)، (الترمذي، 2009، 218/5 برقم 3188)، (ابن حنبل، 2001، 353/32)*. والحديث الشريف: "خلق الله آدم من أديم الأرض كلها، فخرجت ذريته على حسب ذلك، فمنهم الأسود والأبيض والأحمر والأصفر، ومنم بين ذلك، والسهل والحزن والخبيث والطيب". *(ابن حبان، 2012، 57/4 برقم 6181)* والحديثان صريحا الدلالة في نسبة ألوان البشر وطبائعهم إلى الأرض التي خلقهم الله منها، وأن تعدد ألوانهم وطبائعهم يعود إلى تعدد ألوان تراب تلك الأرض. فالتراب تتعدد ألوانه بين الأبيض والأسود والأحمر والأصفر وبين ذلك وتتجلى في ألوان البشر في البشرة الداكنة والفاتحة وبين ذلك، وكما تتجلى أنواع التراب المتعددة (الطيب، الخبيث، السهل، الصعب، بين ذلك) في طبائع البشر فكان منهم الطيب والخبيث والسهل الطباع والشديد الصعب وبين ذلك.

الخامس: الروايات الإسلامية، فقد روي عن ابن مسعود رضي الله عنه في قصة خلق آدم أن الله بعث ملكا فأخذ من وجه الأرض وخلط، ولم يأخذ من مكان واحد، وأخذ من تربةٍ حمراء وبيضاء وسوداء، فلذلك خرج بنو آدم مخلفين، لذلك سمّي آدم؛ لأنه أخذ من أديم الأرض. *(القرطبي، 1964، 280/1)* ونقل ابن عطية: "وقال الطبري وجمهور المفسرين: هو من صلّ إذا صوّت، وذلك في الطين لكرمه وجودته، فهي إشارة إلى ما كان من تربة آدم من الطين الحر، وذلك أن الله تعالى خلقه من طيب وخبيب ومختلف اللون" *(ابن عطية، 1422 هـ، 226/5)*.

السادس: القياس على قوله تعالى ﴿وَفِي ٱلۡأَرۡضِ قِطَعٞ مُّتَجَٰوِرَٰتٞ وَجَنَّٰتٞ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَزَرۡعٞ وَنَخِيلٞ صِنۡوَانٞ وَغَيۡرُ صِنۡوَانٖ يُسۡقَىٰ بِمَآءٖ وَٰحِدٖ وَنُفَضِّلُ بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ فِي ٱلۡأُكُلِۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [الرعد ٤]، فهذه الآية غاية في الوضوح في إبطال تأثير الطبيعة *(الشنقيطي، 2019، 537/6)* والبيئة في الثمار والزروع والنخيل والأعناب المتعددة المتنوعة في أشكالها وألوانها وطعومها مع أنها تسقى من ماء واحد، وقد نسب الله تعالى التأثير في تنوعها وتفضيل بعضها على بعض إلى الله تعالى، وإذا كانت الطبيعة لا أثر لها في الثمار والزروع وغيرها من الأشجار والنباتات مع أنها مرتبطة بها أشد الارتباط وأكثر من الإنسان قابلية للتأثر بها، فكيف يمكن أن يكون للطبيعة تأثير في ألوان الناس؟!

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

وبهذا تربط النصوص الإسلامية بين الأصل الترابي الذي خلق الله منه الإنسان وبين أثره وتجليه فيه جسديا ونفسيا، وإذا كنا نلمح ذلك في نفسية الإنسان بسهولة ويسر –فطبائع النفوس بين أبناء السهل والجبل والساحل والصحراء والوديان متمايزة مختلفة، وهو إعداد رباني ليتكيّفوا مع هذه البيئات وليس نتيجة للطبيعة– فإننا نحتاج إلى مزيد من الجهد لربط تعدد ألوان الإنسان بألوان التراب الذي خُلق منه، وعامة الناس والأبحاث العلمية تربط أسباب تنوع ألوان البشر بدرجات الحرارة؛ أي أن ارتفاع درجات الحرارة في إفريقيا هو السبب برأيهم في سواد بشرة أبنائها، والبرودة في روسيا وشمال أوروبا سبب في بياض بشرة أبنائها، واعتدال الحرارة فيما حول البحر المتوسط سبب في توسط ألوان أبنائها بين السواد والبياض. وهذا –وإن كان صحيحا في ظاهره – ليس بهذا التصور، وإنما هو من رحمة الله ببني آدم، إذ جعل لكل منهم اللون الذي يستطيع أن يتكيف به مع أجواء المنطقة التي يعيش بها، ولو كانت الحرارة هي سبب ألوان البشر لما وجدنا في جنوب إفريقيا ملايين البيض يعيشون فيها منذ مئات السنين، وما زال أبناؤهم وأحفادهم بيضا ولم يغيّر ارتفاع درجات الحرارة من بياضهم إلى درجة تجعل ألوانهم كألوان غالبية سكان الدولة نفسها. وكذلك نجد الآلاف من البشر من ذوي البشرة السمراء الداكنة يعيشون في مناطق شديدة البرودة في أوربا منذ مئات السنين ولم تتغير ألوانهم ويصبحوا بيضا. وهنا يمكن أن ندون أربع ملاحظات جوهرية:

1. أن التفسير الإسلامي لتعدد ألوان البشر ينقل مركز الفعل والتأثير من الطبيعة والبيئة –كما يقول الملاحدة– إلى الإرادة الإلهية الحكيمة، استنادا إلى أدلة صريحة من القرآن الكريم نحو قوله تعالى ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقۡدِيرٗا﴾ [الفرقان ٢]، ومن الحديث الشريف الذي مر ذكره آنفا، فالإنسان ليس كتلة من طين شكلتها البيئة أو الطبيعة على مدار الزمن ولا ألغت شيئا فيه مما خلقه الله له وأودعه فيه، وإنما هو مشروع إلهي زُوِّد مسبقا بكل الأدوات اللازمة للنجاح في مهمته على الأرض، وبدلا من أن تكون البشرة الداكنة مثلا قد تطورت على مدار آلاف السنين لحماية سكان المناطق الاستوائية، تكشف النصوص الإسلامية أن الله تعالى قد أودع في هذه البشرة الداكنة من تراب الأرض ما يجعلها تتعايش مع هذه البيئة وظروفها القاسية، فجاء من ذرية آدم من يحمل هذه السمة اللونية ليكون مهيّأ للعيش في هذه المنطقة، وكذلك حال البشرة الفاتحة لسكان المناطق الباردة، وحال الألوان الأخرى كلها، كل منها أعدّ ليكون مهيّئاً للعيش في المنطقة التي قدَّر الله

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

تعالى له أن يستخلفه فيها، وبمعنى آخر فإن هذا التنوع توزيع إلهي للقدرات الجسدية والنفسية على المجموعات البشرية لتكون مهيأة فطريا للعيش في المنطقة التي قدر لها أن تعمرها وتعيش وتنتشر فيها، ومن غير المنطقي أن يكلفنا الله بمهمة ولا يعدّنا لها الإعداد اللازم، حاشا لله.

2. أن هذا التنوع في ألوان البشر من نعم الله تعالى عليهم ليتكيَّفَ كلٌّ منهم في البيئة التي سيعيش فيها، فأصحاب البشرة السمراء الداكنة الذين يعيشون في المناطق الحارة القريبة من خط الاستواء تعد بشرتهم غنية بالميلانين الذي يعمل كالواقي الطبيعي من أشعة الشمس وحرارتها، فيحمي الجلد من أضرار الأشعة فوق البنفسجية كالحروق وسرطان الجلد وضربات الشمس وحماية مخزون حمض الفوليك الضروري للخصوبة والإنجاب ولكثير مما يحتاجه الجسم. وباختصار شديد تعد البشرة الداكنة غنية بالميلانين آلية دفاع ربانية لحماية عنصر غذائي حيوي من تدمير أشعة الشمس القوية له وليست مجرد لون. وكذلك فإن أصحاب البشرة الفاتحة بألوانها المتعددة الذين يعيشون في مناطق بعيدة عن خط الاستواء وتتدرج ألوانهم بحسب البعد عنه هم بأمس الحاجة إلى التعرض لأشعة الشمس لإنتاج فيتامين (د) الذي يؤدي دورا مهما في صحة العظام ومناعة الجسم والصحة العامة للجسم، وذلك أن هذه البشرة تسمح لكمية أكبر من الأشعة فوق البنفسجية باختراق الجلد، على عكس البشرة السمراء الداكنة التي لا تسمح لهذه الأشعة باختراق الجلد بعمق والوصول إلى الأوعية الدموية. فهل هذا الإعداد الجسماني نتيجة للتكيف مع البيئة أم أنه منحة من الله تعالى لعباده ما يحتاجون إليه، ورحمة منه تعالى بهم؟ هل يعقل أن تكون البيئة هي التي منحت البشر ما يقون به أنفسهم منها؟

3. أن هذا التنوع في الألوان كالتنوع في ألوان لوحة فنية جميلة، وصحيح أن الظاهر أنها للتوظيف الفني في اللوحة، لكنها في الحقيقة للتكامل الفني والتعبيري، فليس فيها لون يغني عن الآخر، ولا يمكن أن تكون فنية جمالية ومعبرة بلون واحدة، ومن ثَمَّ فإن ألوان البشر أشبه ما تكون بألوان هذه اللوحة الفنية تكاملا في الجمال والتعبير، فهو إذن جمال مقصود وتنوع وظيفي وليس نتيجة تكيف مع الطبيعة، وكل لون بشرة تهيئة لبيئة محددة، وكل طبع إعداد لمهمة محددة أيضا.

4. أن التفسير الإسلامي لم يتوقف عند الجانب المرئي من ألوان البشر وربط بألوان التراب الذي خُلقوا

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

منه، ولكن تعداه إلى طبائع النفوس، فالحديث النبوي الشريف يربط بكل وضوح بين طبائع البشر (السهل والحزن، الطيب والخبيث، وبين ذلك) وأنواع التراب الذي خلقهم الله منه، وهذا أيضا آية أخرى على القدرة الإلهية العظيمة في إعداد البشر وتهيئتهم للعيش في الأرض بمختلف أشكالها وظروفها وعمارتها واستخلافها، فكما أن الأرض متنوعة، فيها السهل المنبسط الميسر للزراعة والاستقرار، وفيها الجبال الوعرة المسالك التي تتطلب قوة وجلدا للانتفاع بها سكنا واستثمارا، وفيها، وفيها الأرض الخصبة المعطاءة، وفيها السبخة المالحة التي لا ينبت فيها شيء، وفيها الأرض الخضراء، والأرض الجدباء، كذلك أودع الله في البشر تنوعا مقابلا في الطباع والنفوس تبعا للتراب الذي خلقوا منه، فجعل من التراب السهل الإنسان صاحب الطبع السهل اللين المسالم الذي يميل إلى الرفق والحوار وتجنب الصدام، وجعل من التراب الحزن الإنسان ذي الطباع الشديدة الصعبة الذي يميل إلى الغلظة والشدة ويمتلك القدرة على تحمُّل المشاق وارتياد الصعاب، وجعل من التراب الطيب الإنسان ذي الطبع الطيب الذي يميل بفطرته إلى الخير والعدل والصلاح والإصلاح، وجعل من التراب الخبيث الإنسان ذي الطبع الخبيث الذي يميل بفطرته إلى الشر والفساد والخبث والاحتيال، وهكذا دواليك. وربما يقول قائل: كيف يجعل الله الإنسان خبيثا أو شديدا يميل إلى الغلظة؟ والجواب عن ذلك يكمن في أن الحياة الدنيا دار اختبار وابتلاء، ولا يكون الابتلاء بأن يكون جميع الناس من ذوي الطباعة السهلة والطيبة، ذلك أن عمارة الأرض ليست مشروعا سكنيا يبنى من الحجارة والطين، وإنما هي في جوهرها مشروع أخلاقي وحضاري كما قال النبي صلى الله عليه وسلم: "إنما بُعثت لأتمم مكارم الأخلاق"، وكيف يمكن أن تبنى الأخلاق إذا لم يكن هناك من يحتاج إليها؛ أعني إذا كان جميع الناس من ذوي الطباع السهلة الطيبة فما الحاجة الداعية إليها؟ فما قيمة السهولة أو معناها من دون الصعوبة؟ وما قيمة الطيب ومعناه من دون الخبث؟ وما قيمة الخير ومعناها من دون الشر؟ ثم أليس التحدي في وجود التناقضات؟ أليست هذه التناقضات هي ساحة الصراع الأخلاقي الذي يمثل جوهر الاختبار والابتلاء للإنسان في هذه الحياة الدنيا؟ أليست هذه التناقضات محفزة للإنسان لمزيد من الابتكار والعمل لمواجهة النقيض؟ أليس ارتقاء الإنسان وعبوديته لله يكمنان في مقاومة الشر ونوازعه والسعي نحو الخير؟ أليس هذا

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

التنوع في طبائع البشر نتيجة تنوع أنواع التراب الذي خلقوا منه ضرورةً للنجاح في هذا الاختبار الإلهي وتوفير الأدوات النفسية اللازمة فعمارة الأرض وإدارة شؤونها بكل تعقيداتها وتناقضاتها؟

لكن ما الحكمة من هذا التنوع في ألوان البشر؟ لم يخلق الله شيئا عبثا أو لا دور له ولا أهمية، حاشا لله، فما من شيء إلا كان بمقدار وله دور مهم في هذه الحياة، ومهمة خُلق من أجلها، والمتأمل لتجلي ألوان التراب في ألوان البشر له دلالات كثيرة وحكم بالغة متنوعة. ومنها:

1. الدلالة على عظمة الخالق وقدرته الباهرة على تحويل التراب الخام إلى كائن حي ناطق عاقل مفكر مكلف بخلافة الأرض واستعمارها مع احتفاظه بالأصل الذي خلق منه، وعظمة هذه العملية ترقى إلى عظمة خلق السماوات والأرض؛ ولهذا عطف عليه بالواو، قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ [الروم ٢٢]. ومن المعلوم أن الواو تفيد الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه من غير دلالة على أفضلية أو أسبقية، وبهذا فالقرآن الكريم يعلي من شأن هذا الاختلاف ويجعل منه آية للتأمل والتفكر لإدراك عظمة الخالق. يقول الشنقيطي: "قد أوضح الله تعالى أن اختلاف ألوان الآدميين واختلاف ألوان الجبال والثمار والدواب والأنعام، كل ذلك من آياته الدالة على كمال قدرته واستحقاقه للعبادة وحده...، واختلاف الألوان المذكورة من غرائب صنعه تعالى وعجائبه، ومن البراهين القاطعة على أنه هو المؤثر جل وعلا، وأن إسناد التأثير إلى الطبيعة من أعظم الكفر والضلال". *(الشنقيطي، 2019، 6/537).*
2. الدعوة إلى التفكر والتدبر ببديع صنع الله تعالى للوصول إلى اليقين بأن هذا الاختلاف هو سر جمال الكون، وأساس قيام الحضارة الإنسانية، وميدان الاختبار الذي تتحقق به إنسانية الإنسان وعبوديته لله تعالى، فاللوحة البشرية بكل تباييناتها ودرجاتها؛ من أعمق السواد إلى أنصع البياض، ومن ألين الطباع إلى أشدها، ومن أطيبها إلى أخبثها، تشكل شهادة مرئية دالة على عظمة الخالق سبحانه وحكمته وقدرته وبديع خلقه.
3. الدلالة على أن هذا التنوع في ألوان البشر مظهر من مظاهر الرحمة والتهيئة، فالخالق عزَّ وجلَّ قد هيّأ الإنسان للأرض وهيّأ الأرض للإنسان في الوقت نفسه فسخرها له ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِى

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعًا مِّنۡهُۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الجاثية ١٣] وجعلها ذلولا أمامه ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ [الملك ١٥].

4. الاختبار والابتلاء في هذه الحياة ﴿وَجَعَلۡنَا بَعۡضَكُمۡ لِبَعۡضٖ فِتۡنَةً﴾ [الفرقان ٢٠]، لأن تعدد ألوان البشر وألسنتهم يستلزم حُكْماً اختلاف ثقافاتهم واهتماماتهم وأولوياتهم، وهذه الاختلافات وجه من وجوه التحدي في الابتلاء والاختبار للبشر، كما يستلزم التكامل والانسجام لا التنافر والخصام، وتطوير فضائل أخلاقية كالرضا والتعاطف والتعاون والعدل وتجاوز العصبيات الضيقة إلى إخوة إنسانية تتجاوز اللون والعرق، وقد جعل الإسلام التقوى معيارا للتفاضل بين الناس لا ألوانهم وأعراقهم ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات ١٣]، وربما كان الحديث الشريف أكثر وضوحا وصراحة في إبعاد الألوان والأعراق والألسن والثقافات معايير للتفاضل "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب". *(الجوزية، 1996، 144/5)*. وترجم ذلك عمليا كما سنشير إلى ذلك.
5. دفع الملل والضجر عن البشر، فاللون الواحد يسبب الملل والضجر بخلاف تعدد الألوان، وتعدد ألوان البشر يدفع عنهم الملل الذي جُبلوا عليه، وكأن هذا التنوع جزء من الإعداد الإلهي ليكمل البشر مهمتهم في عمارة الأرض وتحفيزهم على تحقيق النماء والارتقاء ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾ [هود ١١٨].

وإذا كان التنوع في ألوان البشر وطبائعهم نتيجة لتنوع التراب الذي خلقوا منه وآية على القدرة والرحمة الإلهية بهم والتهيئة لهم، فما الغايات الكبرى التي تكمن وراءه؟ ثمة غايات كثيرة، منها:

1. التفكر في آيات الله تعالى وكمال قدرته وعظمة خلقه والتدبر والاعتبار ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡعَٰلِمِينَ﴾ [الروم ٢٢]، وقد عطف اختلاف ألسنة البشر وألوانهم على خلق السماوات والأرض بالواو التي تفيد الجمع بين المعطوف والمعطوف عليه بحكم واحد من غير دلالة على الأسبقية والتفاضل إلا إذا كان في التركيب ما يشير إليه، فدل بذلك على أن اختلاف

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

ألوان البشر آية على القدرة الإلهية، تدعو إلى التفكر والتدبر لآيات الله بدلا من أن تكون مدعاة للتناكر والتفاضل والتفاخر والعداء.

2. التعارف والتعاون والتكامل، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾ [الحجرات ١٣]، والخطاب للناس جميعا (يا أيها الناس)، وقد بينت الآية أن الاختلاف من أجل التواصل والتعاون والتكامل لتحقيق مهمة عمارة الأرض التي كلفه الله تعالى بها (لتعارفوا)، واللام للتعليل وبيان سبب الخلق من نفس واحدة، إذ لا يمكن لشعب أو قبيلة أو عرق أو لون (مجموعة بشرية)أن تستغني عن الآخرين مهما بلغت قوتها وغناها، فأمريكا اليوم مثلا بقوتها وتطورها العلمي وثروتها الهائلة لا يمكنها أن تكتفي بنفسها وتستغني عن غيرها، ولا يمكن لأي أمة أو حضارة أن تكون مستغنية عن غيرها، منذ أن خلقت البشرية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

3. الإعداد الإلهي المسبق للبشر جسديا ونفسيا لعمارة الأرض كما أسلفت ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَٱسۡتَعۡمَرَكُمۡ فِيهَا﴾ [هود ٦١] والاستعمار من استعمر على وزن استفعل، مثل استغفر واستنصر؛ أي طلب العمارة والمغفرة والنصر؛ أي أن الله طلب منهم أن يعمروا الأرض التي أنشأهم منها، فهي الأصل وهم الفرع منها، ومن الوفاء أن يرد الفرع الجميل لأصله، ورد الجميل للأرض يكون بعمارتها وإصلاحها، وهذه المهمة تتطلب مجموعات بشرية متعددة ومتنوعة جسديا ونفسيا، يقوم كل منها بما يستطيع لإنجاز هذه المهمة في البيئة والظروف التي قدر الله تعالى له أن يعيش فيها ويعمرها، ولا يتصور أن تعمّر الأرض بقدرة واحدة وبلون واحد وطبع واحد، فكما أن الجسم يحتاج إلى أعضاء مختلفة لكل منها وظيفته، فكذلك تحتاج البشرية إلى هذا التنوع في الألوان والألسن والطباع والقدرات لإنجاز المهمة الإلهية المكلف بها في عمارة الأرض ماديا بالبناء والزراعة والصناعة والعلم ومعنويا بالعدل والرحمة والأخلاق والعبادة، وخلافتها وإدارة شؤونها ومواردها ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗ﴾ [البقرة ٣٠].

4. أن الأصل في هذا التنوع هو التعارف والتعاون والتكامل كما أسلفت، لكن النفس البشرية المخلوقة من التراب الخبيث تحاول جاهدة تحويل هذا التنوع من نعمة إلى نقمة، ومن التواصل والإخاء إلى القطيعة والعداء، ومن أداة للبناء إلى معول للهدم، وذلك عندما تسيء توظيف هذا التنوع في الألوان والقدرات البشرية

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

إلى معايير للتفاضل والتراتب والظلم والاستعلاء والتفاخر بالأعراق والألوان والعنصرية، وما كان من الإسلام إلا أن وضع مبادئ أساسية لمعالجة انحرافات تلك النفس الخبيثة، ومنها:

أ. تبيان أن التفاخر بالأصل المادي سبيل من سبل إبليس ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾ [ص ٧٦] لأنه يشكل جوهر الفكر العنصري، وجعل كل من يتفاخر بالأصل المادي كافرا تابعا لإبليس في منطقه ومعتقده؛ لأن هذه العنصرية شكل من أشكال الشرك العملي وليست مشكلة اجتماعية فحسب؛ فهي تقوم على معيار وضعه الإنسان لنفسه متجاوزا معيار التقوى الذي وضعه الله له، ولهذا لما تفاخر صاحب الجنتين على الفقير بكثرة ماله ونفره ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٞ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكۡثَرُ مِنكَ مَالٗا وَأَعَزُّ نَفَرٗا﴾ [الكهف ٣٤].كان رد الرجل المؤمن على صاحب الجنتين بتكفيره وتذكيره بالأصل المادي لهما وليس فيه ما يجعله يتفاخر ويتعالى عليه ﴿قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرۡتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلٗا﴾ [الكهف ٣٧].

ب. التذكير بالوحدة الإنسانية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗ﴾ [النساء ١]، ﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ﴾ [الأنعام ٩٨]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَجَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا لِيَسۡكُنَ إِلَيۡهَا﴾ [الأعراف ١٨٩]، ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ ثُمَّ جَعَلَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا﴾ [الزمر ٦]، فالإسلام يذكر في أكثر من موضع أن البشرية كلها ترجع إلى أصل واحد رغم تنوعهم الظاهري جسديا ونفسيا، وهو ما يلغي أي أساس للتفاخر والتفاضل والاستعلاء والتراتبية بالجنس أو العرق أو اللون ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ﴾ [الروم ٢٠]، ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ جَعَلَكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾ [فاطر ١١]، ﴿هُوَ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٖ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٖ ثُمَّ يُخۡرِجُكُمۡ طِفۡلٗا ثُمَّ لِتَبۡلُغُوٓاْ أَشُدَّكُمۡ ثُمَّ لِتَكُونُواْ شُيُوخٗا﴾ [غافر ٦٧]، وجعل التقوى معيارا وحيدا للتفاضل ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡ﴾ [الحجرات ١٣]، وفي الحديث الشريف: "لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب". *(الصنعاني، 1433هـ، 144/5)* ومعيار التقوى هذا من أعدل المعايير وأعلاها لأربعة أسباب:

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

الأول: أنه معيار داخلي يتعلق بقلب الإنسان وعمله ومراقبته لله في السر والعلن واجتناب نواهيه والتزام أوامره، ولا علاقة له بلون الإنسان أو شكله أ ونسبه أو غير ذلك مما لا إرادة ولا اختيار له فيه.

الثاني: أنه معيار مكتسب لا موروث، وهذا ما يجعل الباب مفتوحا أمام جميع الناس بصرف النظر عن ألوانهم وأعراقهم وأجناسهم، ويوجه بذلك بوصلة التنافس الإنساني نحو ميدانه الحق؛ ميدان الإيمان والعمل الصالح والأخلاق الفاضلة ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلۡيَتَنَافَسِ ٱلۡمُتَنَٰفِسُونَ﴾ [المطففين ٢٦]، وهو الميدان الذي ينجي صاحبه يوم القيامة، وليس الأنساب والألوان والأعراق الموروثة ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيۡنَهُمۡ يَوۡمَئِذٖ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون ١٠١]، ولا الأموال والأولاد ﴿يَوۡمَ لَا يَنفَعُ مَالٞ وَلَا بَنُونَ إِلَّا مَنۡ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلۡبٖ سَلِيمٖ﴾ [الشعراء ٨٨- ٨٩].

الثالث: أنه معيار عادل ومتاح للجميع، للغني والفقير، للأبيض والأسود، للطيب والخبيث، للضعيف والقوي، لشريف النسب ووضيعه، وبهذا يحطم كل أشكال الاستعلاء والعنصرية والتراتبية الظالمة مما لا يد للإنسان فيه، ويجعل التفاضل على أساس التقوى، فأكرم الناس وأشرفهم وأعلاهم قدرا ومكانة عند الله أتقاهم بصرف النظر عن غيرها من المعايير الأخرى.

الرابع: أن هذا المعيار رباني معنوي لا بشري مادي، ولا أحد قادر على تقييمه سوى الله تعالى، ولا يمكن لإنسان أن يزكي نفسه به ﴿هُوَ أَعۡلَمُ بِكُمۡ إِذۡ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ وَإِذۡ أَنتُمۡ أَجِنَّةٞ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡۖ فَلَا تُزَكُّوٓاْ أَنفُسَكُمۡۖ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم ٣٢].

وقد ترجم الإسلام ذلك عمليا متجاوزا الألوان والأعراق والأنساب معيارا للتفاضل كما كان في الجاهلية، وأحل محلها رابطة الإيمان والأخوة، فكان بلال الحبشي رضي الله عنه مؤذن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان سلمان رضي الله عنه مستشارا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجعله من أهل بيته فقال: سلمان منا أهل البيت". زيد بن حارثة بعد أن كان عبدا أسود مملوكا ولاه النبي الكريم إمارة جيش المسمين وفيه كبار الصحابة من قريش والمدينة. ولما عير أبو ذر أحد الصحابة بأمه قال له النبي صلى الله عليه وسلم: إنك امرؤ فيك جاهلية. *(البخاري، 1993، 20/1 برقم 30)، (النيسابوري، 1955، 1282/3 برقم 1661).*

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

وقد يبدو للوهلة الأولى أن ثمة تعارضا ظاهريا بين المنظورين العلمي والإسلامي، وقد أوضحت في المبحث الأول أن في المنظور العلمي جانبين: أحدهما وظيفي يفسر كيف تتكيف ألوان البشر مع البيئة والأشعة فوق البنفسجية بدرجاتها المختلفة، والثاني افتراضي يفترض أن نشأة ألوان البشر كان بفعل الطبيعة والبيئة، وليس كذلك، بل هو إعداد رباني كما أسلفت. ومن هنا يمكن القول بناء على ما جاء في القرآن الكريم والحديث الشريف: إن تنوع ألوان البشر وطبائعهم يعود إلى تنوع التراب الذي خلقوا منه، وأن هذا التنوع في الألوان والطبائع كان نعمة ربانية ليتوافق مع تنوع بيئات الأرض ومستويات الأشعة فوق البنفسجية ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ [الأنعام ١٢٤]، وليس نتيجة للتكيف مع البيئة وأشعة الشمس على مدار السنين، ونسيج الإنسانية بألوانه وثقافاته –التي لا حصر لها كما لا حصر لألوان التراب وأنواعه– يعد تحفة فنية من إبداع الخالق جل جلاله، ويجب أن يلهم فينا إيمانا أعمق بالله تعالى وشعورا أكبر في التواضع والبعد عن التعالي، وفي الالتزام بصون الكرامة للبشرية جمعاء.

وبذلك تتضح لنا معالم الرؤية الإسلامية المتكاملة لأصل التنوع البشري وغاياته، فهي رؤية تبدأ من (قبضة تراب) و(سلالة من طين) لتنتهي إلى فسيفساء بشرية غنية بالألوان والطبائع، خُلقت لغاية سامية وهدف نبيل هو عمارة الأرض وخلافتها، وكان الإنسان أولى من الملائكة في إنجاز هذه المهمة الإلهية لأن الله قد خلقه و أنشأه من خلاصة الأرض كلها، ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكٞۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة ٣٠]، وبهذا أيضا يتبين لنا سر اختيار الله تعالى له من أجل هذه المهمة، وغياب هذا السر عن الملائكة، فأساس الاختيار لهذه المهمة لم يكن عبادة الله وتقديسه وتسبيحه فحسب، وإنما المناسبة والوفاء، المناسبة بين الأصل والفرع، والوفاء من الفرع للأصل.

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

نتائج البحث:

1. أن تنوع ألوان البشر وطبائعهم هو تجلٍّ لتنوع ألوان التراب وأنواعه، وليس نتاجا لعملية تطور أو انتخاب طبيعي على مدار ملايين السنين.
2. أن ألوان البشر كانت منحة ربانية لا نتيجة، فهي لم تتطور لتتلاءم مع البيئة، وإنما منحهم الله إياها ليتكيفوا مع البيئات المختلفة.
3. أن تعدد ألوان إعداد رباني مسبق للبشر لتكيفوا مع البيئات والظروف المناخية المختلفة، فالبشرة الداكنة وسيلة حماية للبشر من أشعة الشمس في المناطق الحارة، والبشرة الفاتحة وسيلة لامتصاص فيتامين (د) من الشمس في المناطق الباردة.
4. بيّن البحث أن وحدة الأصل الإنساني –فالبشرية كلها ترجع إلى أصل واحد، رغم الاختلافات الشكلية الظاهرية– تنفي أي أساس للتفاضل العرقي أو اللوني.
5. بيّن البحث أن اختلاف ألوان البشر وطبائعهم آية على قدرة الله الباهرة، وكمال عظمته، ووحدانيته.
6. أكد البحث أن اختلاف ألوان البشر وطبائعهم كان لمقاصد كثيرة منها الابتلاء والاختبار، والتواصل والتعاون والتكامل.
7. بيّن البحث أن الإسلام يرفض المعايير المادية الموروثة مما لا يد للإنسان فيها، ويضع التقوى معيارا وحيدا للتفاضل بين البشر وتحديد المكانة عند الله.

خاتمة:

في الختام آمل أن يكون البحث قد قدَّم ما يصحح فهمنا لأصل التنوع البشري لونا وطبائع، ناقلا إياه من حيز المصادفة وتأثيرات الطبيعة إلى الحكمة الإلهية، فكل لون بشرة إنما هو شهادة حية على الأصل الترابي للإنسان، ودليل على رحمة الخالق الذي أعدّ عباده بكل ما يلزمهم لخلافة الأرض وعمارتها، وآية تدل على وحدانية الله تعالى وعظمته وكمال قدرته وانفراده بالعبودية، وتدعونا نحن البشر إلى الوحدة والتعاون والتكامل لا إلى التنافر والتصارع، وأن قيمتنا الحقيقية في تقوانا وعملنا الصالح لا في ألواننا.

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

المصادر والمراجع:

- ابن الأنباري، أبو البركات عبد الرحمن، الإنصاف في مسائل الخلاف، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية، صيدا، الطبعة الأولى، 2003م.
- البخاري، محمد بن إسماعيل، تحقيق مصطفى البغا، دار ابن كثير، دمشق، الطبعة الخامس، 1993م.
- الترمذي، أبو عيسى، سنن الترمذي (الجامع الكبير)، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، 2009م.
- الجوزية، ابن القيم، زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق شعيب الأرناؤوط وعبد القادر الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م.
- ابن حبان، محمد، صحيح ابن حبان، تحقيق محمد علي سونمز، خالص آي دمير، دار ابن حزم، بيروت، الطبعة الأولى، 2012م.
- حنبل، أحمد، مسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 2001م.
- الشنقيطي، محمد المختار، أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، دار عطاءات العلم، الرياض، الطبعة الخامسة، 2019م.
- الصنعاني، محمد بن إسماعيل، سبل السلام شرح بلوغ المرام، تحقيق محمد حلاق، دار ابن الجوزي، السعودية، الطبعة الثالثة، 1433هـ.
- الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق عبد الله التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، 2001م.
- ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984م.
- ابن عطية، عبد الحق بن غالب، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1422هـ.
- القرطبي، محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار

ISSN: 2392- 5418 e-ISSN: 2520- 7423 DOI:10.59799/SQZH5356

الكتب المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، 1964م.

- ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار صادر، بيروت، 1414هـ.
- نخبة من أساتذة التفسير، التفسير الميسر، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، السعودية، الطبعة الثانية، 2009م.
- النيسابوري، مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1955م.

المواقع الإلكترونية:

https://2u.pw/dxAta
https://2u.pw/oV08g
https://www.carehospitals.com/ar/blog-detail/how-to-reduce-melanin-in-skin/
https://al-aleem.science/why-peolple-have-differnt-skin-color-181205
https://ar.rt.com/jdsj
https://2u.pw/MhL20